

Tafsir Sūrah Al-Ma'ārij Dirāsah Maudū'iyah

تفسير سورة المعارج دراسة موضوعية

Taufan Adji Aryono

Sekolah Tinggi Ilmu Al-Qur'an (STIQ) ZAD, Cianjur, Indonesia
taufan.student@stiqzad.ac.id

Lira Erlina

Sekolah Tinggi Ilmu Al-Qur'an (STIQ) ZAD, Cianjur, Indonesia
lira.erlina@stiqzad.ac.id

Yogi Suparman

Sekolah Tinggi Ilmu Al-Qur'an (STIQ) ZAD, Cianjur, Indonesia
yogi.suparman@stiqzad.ac.id

Abstract

This research aims to understand the kalam Allah Subhanahu Wata'ala with the right understanding, solve problems, conclude faidah, wisdom, law and collect a variety of different topics in surah Al-Ma'ārij. The research method used is objective, with the research procedure investigating data from sources that are referenced by experts in their fields and then detailing cases that need more details and explanations. This study proves that surah Al-Ma'ārij focuses on three things: First, the pagans ask for the death of doom because it is based on their belief in the doomsday. Second, the terrifying and busy doomsday. Third, the weakness of man in the face of calamity and favor.

Keywords: *Tafsir ; Thematic ; Al-Ma'ārij*

Abstrak

Penelitian ini bertujuan untuk memahami kalam Allah *Subhanahu Wata'ala* dengan pemahaman yang benar, memecahkan permasalahan, menyimpulkan faidah, hikmah, hukum dan mengumpulkan berbagai topik yang berbeda di dalam surah Al-Ma'ārij. Metode penelitian yang digunakan ialah obyektif, dengan prosedur penelitian menyelidiki data dari sumber yang menjadi rujukan para ahli dibidangnya kemudian merincikan perkara-perkara yang butuh perincian dan penjelasan lebih mendalam. Kajian ini membuktikan bahwa surah al-Ma'ārij fokus terhadap tiga hal : Pertama, orang-orang kafir meminta turunnya azab karena didasari ketikdakterpercayaan mereka terhadap hari kiamat. Kedua, kedaan hari kiamat yang menakutkan dan menyibukkan. Ketiga, lemahnya manusia dalam menghadapi musibah dan nikmat.

Kata kunci : *Tafsir ; Tematik ; Al-Ma'ārij*

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى فهم كلام الله ﷺ في سورة المعارج فهما صحيحا، وإزالة الإشكالات، واستنباط الفوائد والحكم والأحكام منها، محاولة جمع شتات موضوعات السورة. إن هذه الدراسة تسلك المنهج الموضوعي، وذلك بتقصيت المعلومات من مصادرها الأصلية المعتمدة عند أهل الفن، ثم تفصيل بعض المسائل العلمية التي تحتاج إلى تفصيل وإيضاح. أثبتت هذه الدراسة أن سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعادا لوقوعه وتكديبا به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفع عنهم، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا، وضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، غلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة.

الكلمات المفتاحية: تفسير، المعارج، موضوعي.

أ. المقدمة

فإن الله ﷻ أنزل القرآن العظيم ليكون نورا يهتدى به، ونبراسا يقتدى به، ومنهج حياة تسير عليه الأمة، وتترى به، وتتأدب بأدابه، وتتخلق بأخلاقه؛ بتدبير ألفاظه؛ تلاوة وحفظا، وتدبر معانيه؛ علما وفهما، وتدبر أحكامه؛ امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، وتدبر أخباره؛ تصديقا لها، ورجاء لوعده، خوفا من وعيده، كما قال ﷻ: (كِتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)¹. وقد كان نبينا ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، ولهذا وصفه الله ﷻ بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)². ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن".

¹ QS. Shad: 29

² QS. Al-Qalam: 4

وما انحصرت رقعة الإسلام وجزر مده إلا بعد أن شوّه كثير من المسلمين صورة الإسلام فصاروا حائلا بين الناس وبين الدخول فيه، بعد أن أصبح كثير منهم لا يمثلون حقيقة الإسلام، لا علماء، ولا عمالا، ولا سلوكا، ولا خلقا، ولا أدبا؛ يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها، وسبب دائها، بإعراضهم عن تدبر القرآن وتطبيقه في واقع حياتهم، فهجره كثير منهم، فلا يقرؤونه إلا في المآتم، وأصبح كثير منهم يقرؤونه لا يجاوز تراقيهم، فلا يتفهمون معانيه، ولا يطبقون أحكامه، ولا يتخلقون بأخلاقه، بل ربما كانوا أبعد من غيرهم من أخلاق الإسلام والقرآن، فتفريط في جنب الله وتقصير في القيام بحقوقه ﷺ، وحقوق الخلق، ومسؤوليات الأمة، وتهالك على الدنيا، وحسد وشحناء، وعداوة وبغضاء، وغلظة وجفاء. وأين هذا من خلق القرآن الكريم.

وما أصاب الأمة ما أصابها من الهوان، والضعف وتسلط الأعداء عليها، وما غزى المسلمون في عقر دارهم إلا بسبب ذلك، مصداقا لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³. ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وذلك بتصحيح مسارها وفق ما رسمه الله ﷻ لها في كتابه العظيم، وفي سنة رسوله الكريم، والاهتداء بهديهما، قولاً وعملاً واعتقاداً، منهجاً وسلوكاً، ومحاسبة كل مسلم لنفسه محاسبة دقيقة، فيما يأتي وفيما يقول ويفعل؛ في تعظيم الخالق ﷻ والقيام بحقوقه، وفي الإحسان إلى الخلق القيام بحقوقهم، لأنها من حقوق الله ﷻ والقيام بما تحمله وتولاه من مسؤوليات الأمة إذ كل فرد منا على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله.

³ QS. Ar-Ra'd: 11

ب. تعريف التفسير

❖ تعريف التفسير لغة

اختلف علماء اللغة في لفظ التفسير:

1. فقيل: هو تفعيل من "الْفَسْر" بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المشكل⁴. قال عجلان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾⁵ أي: تفصيلاً⁶.

2. وقيل: هو مقلوب من "سفر" ومعناه أيضا الكشف، يقال: سمرت المرأة سفورا إذا ألفت خمارها

عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء. وإنما بنوا "فسر" على التفعيل فقالوا: "تفسير"

للتكثير.

وقال الراغب الأصفهاني: "الْفَسْر" و"السفر" يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، ولكن جعل الفسر

لإظهار المعنى المعقول... وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار فقيل: سمرت المرأة عن وجهها، وأسفر

الصبح⁷.

❖ تعريف التفسير اصطلاحا

قال الزركشي: "التفسير: علم يفهم به كتاب الله، المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه،

واستخراج أحكامه وحكمه"⁸.

⁴ Al-Azhari, Tadzhib al-Lugah (Beirut: Dar Ihya al-Turats al-‘Arabi, 2001), jil. 12 hal. 407.

⁵ QS.al-Furqan: 33

⁶ Al-Zarkasyi, al-Burhan Fi ‘Ulum al-Qur’an (Beirut: Dar al-Ma’rifah), jil. 2 hal. 13.

⁷ Al-Ragib al-Asfahani, Muqadimah jami’ al-tafasir, hal 47.

⁸ Al-Suyuti, al-Itqan Fi ;Ulum al-Qur’an, jil. 2 hal. 174.

وقال ابن عاشور: "اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار

أو توسع"⁹.

ونقول أنه علم يتم به فهم القرآن، وبيان معانيه، والكشف عن أحكامه، وإزالة الأشكال والغموض

عن آياته.

ت. تعريف التفسير الموضوعي وأهم المؤلفات فيه

❖ تعريف التفسير الموضوعي لغة

"التفسير الموضوعي" مركب من كلمتين.

أما "التفسير" فقد سبق أن تكلمنا على تعريفه، فهو علم يختص بحسن فهم معاني القرآن، وبيانها

وتوضيحها. وأما "الموضوعي" فإنه نسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق من الوضع.

"والوضع: جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك معنى الخط والحفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت

في المكان".

الأول: وضع مادي حسي، ومنه: وضعه على الأرض، بمعنى حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

والثاني: وضع معنوي، ومنه: الوضع، وهو الدنيء المهان الدليل، الذي قعدت به همته أو نسبه،

فكأن ملقى على الأرض، موضوع عليها، لا يفارق موضعه الذي التصق به.

⁹ Ibn 'Asyur, al-Tahrir Wa al-Tanwir, jil. 1 hal. 11.

والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مغادرته.

وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين، وموضوع محدد من موضوعات القرآن، يبقى معه، ولا يتجاوز إلى غيره حتى يفرغ منه¹⁰.

❖ تعريف التفسير الموضوعي اصطلاحاً

هناك عدة تعريفات للتفسير الموضوعي، منها ما يقتصر على مجال واحد من مجالاته، ومنها يشمل مجالاته، ومنها ما هو أقرب إلى الوصف والشرح وبيان إجراءات البحث فيه، ومن تعريفاته المختصرة ما يلي:

"بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن من قضية ما، في ضوء ما يتصل بها من آيات، ضمن منهج ذي مجالات وخطوات".

"علم يُعنى بالكشف عن موقف القرآن من قضية ما، في ضوء ما يتصل بها من آيات، ضمن منهج ذي مجالات وخطوات"¹¹.

"الكشف الكلي عن مراد الله ﷻ في قضية قرآنية بحسب الطاقة البشرية"¹².

¹⁰ Mustafa M.uslim, Mabahits Fi al-Tafsir al-Maudh'i (Damascuc: Dar al-Qalam, 1989) hal. 15.

¹¹ Zaid Ibnu Umar al-'Iyas, al-Tafsir al-Maudhu'i Baina al-Tasil Wa al-Tamtsil (Cairo: Dar al-Mawaddah) hal.20.

¹² Samir Rasywani, Manhaj al-Tafsir al-Maudhu'i Li al-Qur'an al-Karim Dirasah Naqdiah, hal.45.

❖ أهم المؤلفات فيه

ومن أهم المؤلفات المعاصرة في التفسير الموضوعي:

1. مباحث في التفسير الموضوعي: للأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، وقد طبعه دار القلم بدمشق (1989م).

2. المدخل إلى التفسير الموضوعي: للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد، وقد طبعه دار الطباعة والنشر الإسلامية في مصر.

3. البداية في التفسير الموضوعي: للدكتور عبد الحي الفرماوي، طبع في مصر (1984م).

ولعل من أجود هذه المؤلفات كتاب الدكتور مصطفى مسلم، وكتاب الدكتور عبد الستار السعيد.

ونلاحظ أن كل مؤلف من المؤلفين الأفاضل كان يقسم مؤلفه عن التفسير الموضوعي إلى قسمين:

القسم الأول: يقدم فيه دراسة نظرية منهجية، يتحدث فيه عن تعريف التفسير الموضوعي، وأهميته،

وألوانه، مناهج بحثه.

القسم الثاني: تطبيقي، يورد فيه نماذج وأمثلة وتطبيقات عملية، على موضوعات ومصطلحات

وسور القرآن الكريم.

ث. أهمية التفسير الموضوعي وفوائده

التفسير الموضوعي من الأساليب المهمة والفييدة في تقريب معاني القرآن الكريم للناس، ومعالجة القضايا المعاصرة، وتنزيل الآيات القرآنية على الواقع، سواء كان ذلك عن طريق الكتابة أم عن طريق الخطبة المعاصرة، ومن أهم فوائده ما يلي:

1. أنه يعين على تفسير القرآن بالقرآن، من خلال جمع الآيات الواردة في موضوع واحد، وبيان بعضها ببعض.

2. أنه يُعد لونا من ألوان التجديد المنهجي المنضبط في كتابة التفسير، وبذلك يسهم في مدافعة التفسيرات المعاصرة المنحرفة التي يزعم أصحابها التجديد في التفسير.

3. بيان ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهدايات الربانية، من خلال الدراسة الموضوعية للآيات والتأمل فيها.

4. معالجة المشكلات الواقعية من خلال القرآن الكريم، وذلك من خلال النظر في مقاصده، والاعتبار بمواعظه وقصصه وهداياته.

5. الرد على أهل الأهواء والشبهة قديما وحديثا، من خلال جمع ما ورد فيها من آيات وتقديمها بأسلوب موضوعي متكامل، وبذلك يتم نقض هذه الشبهات وإبطالها، وبيان موقف القرآن الصحيح من القضايا التي يثيرونها بسبب نظرتهم القاصرة للنصوص.

6. إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال جمع الآيات الواردة في مجال التشريع والعلوم المعاصرة وبيان دلالاتها المعجزة من غير تعسف وتكلف في إثبات هذه الوجوه الإعجازية.

تأصيل بعض العلوم المعاصرة وضبط مسارها؛ كالعلوم الاقتصادية والتربوية والنفسية وغيرها وذلك بدراسة ما ورد فيها من آيات وما تحويه من دلائل وهدايات¹³.

ج. تفسير سورة تفسيرا موضوعيا وخطوات كتابته

❖ تفسير سورة تفسيرا موضوعيا

وهو تفسير سورة معينة من خلال التمهيد التعريفي لها، وتقسيمها إلى مقاطع حسب موضوعاتها ومقاصدها، ووضع عنوان لكل مقطع، وتفسيره، وبيان هداياته، وقد قال به أكثر الباحثين، وتقدم في المبحث السابق ذكر عدد من المؤلفات فيه.

من الباحثين من لم ير هذا المجال؛ لما يأتي:

1. أن اعتبار هذا المجال مبني على القول بوجود الوحدة الموضوعية، وهي أمر تختلف فيه الأنظار، فكيف موضوعاتها على هدف مختلف في تحديده¹⁴.
2. اختلاف منهج البحث والكتابة فيها عن الموضوع القرآني¹⁵.
3. أن حرص الباحث على القول بالوحدة الموضوعية قد يؤدي إلى إغفال بعض موضوعات السورة، التي لا تنسجم مع العنوان العام الذي وضعه لها، حفاظا على هذه الوحدة¹⁶.

¹³ Al-Kumi, al-Tafsir al-Maudhu'i, hal.17.

¹⁴ 'Abd al-Satar Sa'id, al-Madkhol Ila al-Tafsir al-Maudhu'i, hal. 25.

¹⁵ Samir Rasywani, Manhaj al-Tafsir al-Maudhu'i Dirasah Naqdiyah, hal. 245.

¹⁶ Muhammad Rajab al-Bayumi, al-Bayan al-Qur'ani (Cairo: al-Dar al-Misriah al-Libnaniah,2005) hal. 195.

والظاهر أنه لا مانع من اعتبار هذا المجال من التفسير الموضوعي، وأما الاعتراضات السابقة

فيمكن الإجابة عنها بما يلي:

1. أن الاجتهاد والاختلاف في تحديد مقصد وهدف السورة أمر سائغ.
2. أنه لا يلزم تحديد مقصد واحد لتفسير السورة موضوعيا، بل تقسم السورة حسب موضوعاتها، وتكون الحدة الموضوعية خاصة من خصائص السورة.
3. وأما كون الباحث يهمل بعض موضوعات السورة حفاظا على المقصد العام الذي وضعه لها فليس بلازم؛ لأنه يُفترض ألا يضع هذا المقصد إلا بعدها يظهر له ارتباط جميع موضوعاتها به.

❖ خطوات البحث والكتابة في تفسير السورة القرآنية

هناك أمور مشتركة بين هذا المجال السابق، وهناك إجراءات خاصة بمنهج الكتابة في السورة القرآنية،

ويمكن إجمالها فيما يلي:

1. التمهيد التعريفي بالسورة، بذكر أسمائها التوقيفية والاجتهادية، وعدد آياتها، وفضائلها إن ثبت لها فضل خاص، ومكان نزولها، وسببه إن وجد، وموضوعاتها، ومناسباتها من غير تكلف.
2. معرفة تفسير السورة معرفة وافية، والاطلاع على أقوال المفسرين فيها، وهي خطوة تحضيرية سابقة للكتابة، والهدف منها فهم معاني الآيات، والقدرة على استنباط هداياتها.
3. محاولة التعرف على الوحدة الموضوعية في السورة، أو محور السورة الذي تدور حوله موضوعاتها، فإن كانت سورة طويلة فقد يكون لها أكثر من مقصد.

4. تقسيم السورة إلى مقاطع، مع وضع عنوان مناسب لكل مقطع، وهذا في السور الطويلة والمتوسطة،

أما السور القصيرة فقد لا تحمل التقسيم، بل تدرس جملةً.

5. ذكر المناسبات بين مقاطع السورة وآياتها، أما مناسبة السورة لما قبلها، ومناسبة فاتحتها لخاتمتها.

6. تفسير كل مقطع تفسيراً إجمالياً، مع ربط المقاطع بعضها ببعض، وبيان صلتها بمحور السورة.

7. ذكر ما يؤخذ من كل مقطع من فوائد ولطائف وهدايات.

8. ربط آيات السورة بالواقع، وتنزيل هداياتها على القضايا المعاصرة.

ويلاحظ أن بعض الأبحاث المكتوبة في التفسير الموضوعي لا يكاد يوجد فيها من الصبغة الموضوعية

إلا العنوان، أما الكتابة فهي تحليلية أو خليط بين التحليل والإجمال، ولا ذكر فيها للمناسبات، ولا

المقاصد، ولا الهدايات، ولا ربط فيها للموضوع بالواقع، فينبغي التنبه لذلك والحرص على الالتزام

بمنهج الكتابة في التفسير الموضوعي.

ح. اليوم الآخر وحال المجرم فيه (الآية 1-21)

افتتح الله ﷻ هذه السورة الكريمة ببيان جهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله استهزاء وتعنتاً وتعجيزاً.

وليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحد يدفعه قبل نزوله، أو

يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين فقال: ﴿وَإِذْ قَالُوا لَللَّهِمَّ

إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾¹⁷.

¹⁷ QS. al-Anfal: 32.

أثبت الله ﷻ جهلهم وجحودهم للحق، وإنكارهم له إنكاراً شديداً، حتى إنهم عدُّوا هذا الحق مستحيلاً، وعلى حسب ما اعتقدوا. فإن نزول العذاب صار في نظرهم مستحيلاً، وهذا القول منهم أبلغ في الجحود والعناد والنكران، كما أنه دليل أكيد على جهلهم وضلالهم. فبدل أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا مما عيبوا به ذكر القرطبي أن ابن عباس رضي الله عنه لقيه رجل من اليهود، فقال اليهودي: ممن أنت؟ قال: من قريش، فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾ الآية، فهلاً عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه! إن هؤلاء قوم يجهلون، قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي، من القوم الذي لم تحفَّ أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه، حتى قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾¹⁸، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فأطرق اليهودي مُفْحَمًا!¹⁹

والعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة. فلو عرفوا الله ﷻ، وعرفوا عظمتهم، وسعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته لاستسلموا وتأدبوا. لقد أراد الله ﷻ ألا يُعجِّل العذاب لهذه الأمة، وجعل سنة الإمهال بدل عذاب الاستئصال؛ لأن هذه الرسالة هي الرسالة الخاتمة، ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل. وأول حدث كوني في هذه الدنيا بعد بعثة

¹⁸ QS. al-A'raf: 138.

¹⁹ Al-Qurtubi, al-Jami' Li Ahkam al-Qur'an, jil. 4 hal. 283.

النبي محمد ﷺ هو قيام الساعة، قال تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾²⁰، ولقد انشق القمر على عهد النبي ﷺ، فلم يبقَ بعد ذلك إلا الساعة!

فالعذاب أنواع، منه ما يكون عند الموت وخروج الروح، ومنه ما يكون في القبر، ومنه ما يكون في الآخرة، ومنه ما يكون فيها جميعاً. نسأل الله الكريم الرحيم لنا ولعموم المسلمين السلامة من جميع أنواع العذاب.

ومن حكمة أحكم الحاكمين ﷺ: أنه لم يُعاجِلهم بالعقوبة؛ لأن من قريش من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وأما من بقي على كفره وعناده، فقد نال جزاءه في غزوة بدر؛ كالنضر بن الحارث وأبي جهل، وهذا من فضل الله ﷻ على خلقه، أنه يُمهّلهم، ولا يعجل لهم العقوبة، فمن أصر على كفره، انتقم الله منه بعدله، وأما من آمن، فقد نال حسنة الدنيا والآخرة بكرمه وفضله ومّته.

والله ﷻ عندما أخبرنا في القرآن الكريم بعذاب الأمم السابقة، وسبب عقوباتهم، كان الغرض أخذ العبرة والعظة، والبعض من الناس قد يستعجل نزول العذاب به، بلسان حاله، وليس بلسان مقاله. فالمعاصي والذنوب من أسباب العذاب والهلاك الذي يحل بالعباد والبلاد، قال الله ﷻ: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾²¹. فلنكن على حذر ووجلٍ، ولنتجنب كل ما يستوجب نزول عذاب الله وعقابه. فينبغي عدم الأمن من عذاب الله جل جلاله وعقابه الذي قد يأتي فجأة.

²⁰ QS. al-Qamar: 1.

²¹ QS. al-An'am: 6.

ثم أخبر الله ﷻ من عظمتها ما يضاد أقوالهم القبيحة أنه ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح. وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة. فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله ﷻ. فتحيي ربها وتسلم عليه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام. وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه). وذكر قبض روحه ثم قال: (فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني بها- على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟).. إلى أن قال: (حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة)، قال: (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه). وذكر قبض روحه ثم قال: (فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟) إلى أن قال: (حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..) الحديث²².

ثم ذكر الله ﷻ المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح. وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير. مع أن تلك المسافة على السير المعتاد

²² HR. Ahmad no. 295-296.

مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملائم الأعلى. فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدييره العلي الأعلى. فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي. عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة).

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) الحديث²³.

والآيات الواردة في بيان قدر اليوم عند الله عز وجل نوعان:

- النوع الأول: آيات تتحدث عن يوم القيامة وهوله، وما يكون فيه من أحداث عظام، وآيات باهرة، وأن من أهواله طول ذلك اليوم بما يعادل خمسين ألف سنة من سني الدنيا، وهذه الآية هي الآية الرابعة من سورة المعارج.

- النوع الثاني: آيات لا تتحدث عن طول يوم القيامة، وإنما تتحدث عن طول الأيام التي عند الله عز وجل، وقدرها بالنسبة لأيام الدنيا التي نعدّها، وهي الأيام التي يحدث الله فيها الخلق والتدبير، فيبين ﷻ أن اليوم عنده يساوي ألف سنة من أيامنا هذه، كما قال ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ

²³ HR. Muslim no. 987, Abu Daud no. 1658, Nasai no. 2448, Ahmad no. 389-390.

يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ²⁴. ويظهر واضحا من سياق الآية هنا أن الحديث فيها عن أيام الله التي يكون فيها خلقه وتدبيره ، فوصفها ﷺ بأن مقدارها يبلغ ألف سنة من أيام الدنيا.

وبهذا يتبين أن النوعين السابقين من الآيات إنما تتحدث عن "أيام" مختلفة، وليست "أياما" واحد، فاليوم في آية المعارج هو يوم القيامة، ومقداره خمسون ألف سنة. وأما اليوم في آية الحج فهو اليوم عند الله الذي يدبر فيه الأمور، ومقداره ألف سنة.

ثم أمر الله ﷺ نبيه ﷺ أن يصبر على دعوته لقومه صبرا جميلا، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله.

وأن يدعو عباده إلى توحيدهِ، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم. فإن في الصبر على ذلك خيرا كثيرا.

ثم بين الله ﷺ حال السائلين بالعذاب حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبا، لأنه رفيق حلِيم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ذكر الله ﷺ علامات قيام الساعة ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة الخلقة تذوب فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة أو كالرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها

²⁴ QS. al-Haj: 47.

كل المبلغ، وكون الجبال الشامخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَأَنْقَرَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾²⁵، وقال تعالى: ﴿وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾²⁶، ثم تكون بعد ذلك هباءً منثوراً فتضمحل. فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبء الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟ أليس خقيقاً أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟

هناك الكثير من الأهوال التي تحدث في نظام الكون يوم القيامة، وبيانها فيما يأتي:

● الأهوال التي تحدث للسماء

تتبدل ملامح السماء يوم القيامة؛ وذلك إثر تصدّعها وانشقاقها، وتخلل أركانها؛ مما يؤدي إلى انخيارها، كما أنّها تتحرك حتى تموج في بعضها، قال ﷺ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾²⁷. كما يتغير لونها وشكلها وتأخذ شكلاً آخر؛ ليُشاهد الإنسان ما كان غيباً عنه، قال ﷺ: ﴿فَإِذَا أُنشِقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾²⁸؛ فيكون لونها أحمرًا كلون الورد، وتكون كالزيت المغلي أو كالرصاص المصهور، وتُصبح ضعيفة؛ لنزول ما فيها من الملائكة. وقد وصف الله ﷻ ضعفها بقوله: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾²⁹، ويكون فيها أبواب؛ لكثرة تشققها، ثم تنزل الملائكة إلى أرض المحشر من هذه الأبواب؛ طاعةً

²⁵ QS. al-Naml: 88.

²⁶ QS. an-Naba: 20.

²⁷ QS. al-Tur: 9.

²⁸ QS. al-Rahman: 37.

²⁹ QS. al-Haqqah: 16.

لأمر الله ﷻ. وفي النهاية تُطوى وتزول وتُبدل بسماءٍ أخرى، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾³⁰.

● الأهوال التي تحدث للشمس والقمر

تُظلم الشمس يوم القيامة، ويذهب نور القمر، ثم يُجمعان ويُرمى بهما، قال النبي ﷺ: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"³¹؛ أي ملفوفان إلى بعضهما مع ذهاب نورهما، ويُرمى بهما³².

● الأهوال التي تحدث للنجوم والكواكب

تنطفئ النجوم وتُتعم، ويتغيّر شكلها، وهو ما يُسمى بالطمس، كما أنّها تتساقط، وأما الكواكب فإنّها تنكدر وتُظلم، كما أنّها تتوقّف عن الحركة والدوران. وجاء ذكر بعض هذه الأحداث بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ﴾³³؛ أي تناثرت وتغيّر شكلها بعد أن كانت مُتناسقة.

● الأهوال التي تحدث للأرض والجبال

تسير الجبال، وتكون كالهباء المنثور، وتتشقّق الأرض، وبعد النفخة الأولى تُطوى الأرض وتُبدل بأرضٍ غيرها، كما أنّ كلّ ما فيها من جبال ومُرتفعات وغير ذلك لا يكون كشكله المعتاد، وتكون كالبساط؛ قال ﷻ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾³⁴.

³⁰ QS. Ibrahim: 38.

³¹ HR. Bukhari no. 3200.

³² Abdu al-Majid Ibn al-Wi'lan, al-Ayat al-Kauniah Dirasah Aqdiah, hal.616.

³³ QS. al-Infitar: 2.

³⁴ QS. al-Fajr: 21.

فالأرض ثابتة لوجود الجبال فيها، ولكن بعد زوال الجبال المثبتة لها يحدث لها كَلٌّ هذا التغيير، من زلزلة وغير ذلك، وتُصبح كالرمال بعد أن كانت ثابتة وصلبة، قال ﷺ: (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)³⁵. وتكون الجبال كالصوف المنفوش، ثم تُنسف حتى تكون هباءً منثوراً، ولا يبقى منها أثر، قال ﷺ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ) ³⁶؛ أي بلا ارتفاع أو انخفاض

● الأهوال التي تحدث للبحار

تسجر جميع البحار يوم القيامة، قال ﷺ: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)³⁷؛ أي تُصبح ناراً فتببس الأرض، وتُصبح بلا ماء. وقد جاء ذكر البحار بصيغة الجمع؛ للدلالة على كثرتها وعظمتها³⁸.

وترتيب أحداث القيامة يكون كما يأتي باتفاق الفقهاء، ولكن الاختلاف كان بينهم باحوض أيكون قبل السراط أم بعده:

● البعث

يقوم الناس من قبورهم إلى المحشر، وينتظرون الحساب وهم قيام، ويغشاهم الخوف، مع شدة العطش، وبعد الانتظار الطويل بمقدار خمسين ألف سنة يكون حوض النبي ﷺ موجوداً في أرض

³⁵ QS. al-Muzammil: 14.

³⁶ QS. Taha: 105-106.

³⁷ QS. al-Takwir: 6.

³⁸ Muhammad Ibn al-'Utsaimin, Liqa al-Bab al-Maftuh, jil. 21 hal. 8.

المحشر؛ ليسقي منه من كان على هديه وسنته؛ فيكون هذا الأمان الأول لأهل المحشر، قال ﷺ: "ثم يُرسل الله مطراً كأنه الطل، فينبث منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون"³⁹.

● الشفاعة العظمى

يشفع النبي ﷺ لجميع الخلائق؛ وتكون شفاعته بأن يتوجه إلى الله ﷻ بالدعاء؛ ليعجل للناس الحساب. ولا يجد الناس من يدعوا لهم سوى النبي ﷺ، مع أنهم يكونوا قد توجهوا إلى عدد من الأنبياء في ذلك، ولا يجيبهم سوى النبي محمد ﷺ. ودليل ذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال أن الله ﷻ يقول له: "يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفعُ شفَع"⁴⁰؛ فتكون شفاعته العظمى.

● الميزان

توزن الأشياء التي في الصحف، وبعدها ينقسم الناس إلى أزواج؛ ليذهب كل شخص مع من كان على شكل أعماله، ويُقام لواء لكل نبي؛ ليدخل الناس تحت هذه الأولوية حسب أعمالهم، ويقسم الناس فيحشر الجاحد مع الجاحد، والظالم مع الظالم، قال ﷻ: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من دون الله فآهدوهم إلى صراط الجحيم⁴¹. كما وتكون هناك ظلمة قبل النار؛ ليسير كل إنسان بما معه من نور حسب عمله، ويسير الناس إلى أن يضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور،

³⁹ HR. Albani no. 8047.

⁴⁰ HR. Bukhari no. 7510.

⁴¹ QS. al-Saffat: 22-23.

قال ﷺ: ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُؤْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُؤْ مِّنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾⁴²، فيقع المنافق مع غير المؤمن في النار.

● الصراط

يكون على النار، ويكون النبي ﷺ يدعو له ولأُمَّتِه بالتسليم فيقول: "اللهم سلِّم سلِّم"⁴³. ويُرْكَل إنسانٌ عليه حسب عمله، وينجو من غفر الله ﷻ له، ويسقط في النار من شاء الله ﷻ له العذاب. وبعد الصراط يُجمع أهل الجنة؛ ليقتص لهم من بعض، ويُخرج الله ﷻ من قلوبهم الغل.

● الجنة

يدخلها النبي ﷺ أولاً، ثم فقراء المهاجرين، ثم فقراء الإنصار، ثم فقراء الأمة. وأما الأغنياء فيؤخرهم الله ﷻ؛ للحساب الذي بينهم وبين الناس، قال ﷺ: "أَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَن خَلَقَ اللهُ: الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُنْتَقَى بِهِمُ الْمَكَارَةُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ هَا قِضَاءً"⁴⁴.

ولهذا بين الله ﷻ أن في ذلك اليوم لا يشاهد القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمله إلا نفسه. وفي ذلك اليوم لو يفتدي المجرم بأبنائه

⁴² QS. al-Hadid: 13.

⁴³ HR. Bukhari no. 806.

⁴⁴ HR. Albani no. 2175.

وزوجته وقربته التي تتناصر ويعين بعضها بعضا، ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحدا، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله. بل لو يفتدي بجميع ما في الأرض ثن ينجيه لم ينفعه ذلك.

قال ابن كثير: (لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه)⁴⁵.

ثم بين الله ﷻ صفات المجرم أنه قد أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض. وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها. فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

و من هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم)⁴⁶. وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال. وقد ضرب الله مثلا للدنيا على هوانها وزوالها وذهاب زينتها فقال: (وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)⁴⁷.

⁴⁵ Ibnu Katsir, Tafsir al-Qur'an al-'Adzim (Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiah, 1419) jil. 8 hal. 252.

⁴⁶ HR. Bukhari no. 4015, Muslim no. 2961, Tirmidzi no. 2462, Ibnu Majah no. 3997.

⁴⁷ QS. al-Kahfi: 45.

والكافر أشد إعجابا بزينة الدنيا لأنه ركن إليها واتخذها دارا له أما المؤمن فيأخذ منها حاجته ولا يغتر بها لأنه يوقن أنها دار ممر وليست دار مقر وإذا أعجب بها ذكر الآخرة فهانت على نفسه ولم تفتنه. فمن أخذها بحقها وأنفقها في حقها وقام بدينه نجا في الآخرة ومن أخذها من غير حقها وصرفها في غير حقها وترك دينه لأجلها هلك في الآخرة والناس في فتنها ما بين مقل ومستكثر والموفق من حماه الله من فتنها.

وصف الله ﷺ الإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية أنه هلوع. إن أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك كثير الجزع والضجر والأسى. وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى الانتحار. قال ابن كثير: (إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير)⁴⁸. وإن حصل له الخير بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك شديد الحرص كثير المنع والإمساك يمنع حق الله في ذلك فيجزع في الضراء ويمنع في السراء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع)⁴⁹.

خ. صفات المؤمنين باليوم الآخر وحالهم فيه

استشى الله من الموصوفين بتلك الصفات، هؤلاء المؤمنون المصلون لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، وأنهم يأوون إلى ركن شديد وحصن منيع وهو إيمانهم بالله عز وجل

⁴⁸ Ibnu Katsir, Tqfsir al-Quran al-'adzim, jil. 8 hal. 253.

⁴⁹ HR. Abu Daud no. 2511.

وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه. ولم يقل: إلا المؤمنين، لأن الصلاة عمود الإسلام وأفضل العبادات وأعظمها ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمناً. قال ابن كثير: (الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووقفه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه)⁵⁰.

ثم أوصف الله ﷺ صفات المؤمنين المصلون:

● أنهم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (يا أيها الناس ع ليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دووم عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها)⁵¹.

● وأنهم ينفقون من أموالهم في الزكاة والصدقة للذي يتعرض للسؤال والمسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفطن له فتصدق عليه.

● وأنهم يؤمنون بنا أخبر الله بيوم القيامة، أخبرت به رسله من الجزاء والبعث، يتيقنون ذلك فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم القيامة يلزم منه التصديق بالرسول وبما جاؤوا به من الكتب.

⁵⁰ Ibnu Katsir, Tafsir al-Quran al-'Adzim, jil. 8 hal. 254.

⁵¹ HR. Bukhari no. 1970, Muslim no. 782, Abu Daud no. 1368, Nasai no. 762, Ibnu Majah no. 5238.

- وأنهم يخافون من العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن عقل عن الله ﷻ أمره إلا بأمان من الله ﷻ. فيتركون لذلك كل ما يقربهم منه. وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبد خوفا من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبدته محبة له، فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفا من عذابه ورجاء في ثوابه.
- وأنهم يحافظون لفروجهم عن الحرام من الزنا واللواط وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك، ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة. إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أم ما ملكته أيماهم أباحهن الله لهم بملك اليمين.
- وأنهم يحافظون ويختهدون على أداء الأمانات والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق في الأموال والأسرار. امثالاً لقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾⁵²، وقول الرسول ﷺ: (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تحن من خانك)⁵³. وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق. امثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾⁵⁴. فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

⁵² QS. al-Nisa: 58.

⁵³ HR. Abu Daud no. 3535, Tirmidzi no. 1264, Darimi no. 2597.

⁵⁴ QS. al-Maidah: 1.

- وأنهم يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم. امثالاً لقول الله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾⁵⁵.

وقد خص الله ﷻ هذه الصفات لفضلها، وافتتحتها بذكر الصلاة واختتمتها بذكر الصلاة في هذه السورة وذلك لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام فهي عمود الإسلام والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: (استقيموا، ولن تحصوا، واعملوا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)⁵⁶.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات والتصدق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

ثم ذكر ﷻ أن جزاؤهم الجنة التي هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل الذي أعده لأوليائه وأهل طاعته في الدنيا الذين أطاعوه وكفروا بالطاغوت وعملوا أعمالاً صالحة. وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه. وتامل في قوله ﷻ في الحديث

⁵⁵ QS. al-Talaq: 2.

⁵⁶ HR. Ibnu Majah no. 277.

القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال الرسول ﷺ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁵⁷".⁵⁸

د. المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم

بين الله ﷻ حال الكافرين أنهم مسرعين مادي أعناقهم، اغترارا منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷻ وبدعوته وهم جماعات متفرقين. عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷻ خرج عليهم وهم حلق، فقال: (مالي أراكم عزيزين؟)⁵⁹. ويطمع كل واحد منهم في إدخال جنة يتنعم فيها. وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب العالمين.

ولهذا قال: (كَلَّا)، أي: ليس الأمر بأمانيتهم ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

والطمع هو الرك خلف متع الدنيا وثرواتها الزائلة، رغبة بامتلاكها والاستئثار بها، وهو صفة مذمومة، لأنها تحبس صاحبها عن عمل ما قد يفيد في الدنيا والآخرة.

ثم بين الله ﷻ حينما خلقهم، أنه أوجدهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانتهم وحقارته وضعفه، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب. فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۙ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۚ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾⁶⁰، فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيدهم ومعرفته.

⁵⁷ QS. al-Sajdah: 17.

⁵⁸ HR. Bukhari no. 3244, Muslim no, 7063.

⁵⁹ HR. Muslim no. 430.

⁶⁰ QS. al-Mursalat: 20-23.

ثم أقسم الله ﷻ بمشارك الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارك سائر الكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون. كما قال ﷻ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾⁶¹. وفي إقسامه عز وجل بربوبته للمشارك والمغارب تعظيم لنفسه ﷻ وتنبية على عظمه وسعة خلقه وملكه وتدييره. فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله. ما أحد يسبقه ﷻ ويفوته يعجزه إذا أراد أن يعيدهم. قال ابن القيم⁶²: "وعبر بقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) لأن المغلوب يسبقه الغالب فيفوت عليه".

ثم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بتركهم هؤلاء الكافرين بخوضهم بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة والتمتع بالدنيا بلا عمل صالح ينفعه غدا. حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله بمجيئه ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة أمرهم وسيجازون على أعمالهم ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد. قال ابن القيم: "فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين".

ثم ذكر الله ﷻ حالهم حين ويلاقون يومهم الذي يوعدون، أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء كأنهم يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم

⁶¹ QS. Muhammad: 38.

⁶² Ibnu al-Qayyim al-Jauziah, Badai' al-Tafsir (Damam; Dar Ibnu al-Jauzi, 1427) jil. 5 hal. 26.

يستلمها أولاً. كما قال ﷺ: (خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)⁶³. وتغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله ﷻ في الدنيا، لأن العز كل العز بطاعة الله، والذل كل الذل في معصية الله.

يعرف البعث بأنه إعادة جسم الإنسان للحياة بعد الموت، ويكون ذلك يوم القيامة. وإذا أراد الله ﷻ بعث الناس أمر الملك إسرافيل لينفخ في الصور؛ لتعود الأرواح إلى أجسادها، ويقوم الناس من قبورهم لله ﷻ. ويصوّر الله ﷻ مشهد البعث في القرآن الكريم؛ فقال: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ)⁶⁴.

والمسلم يؤمن بالبعث الذي يكون في يوم القيامة، وذلك بأن الله ﷻ سيبعثه ويحشره ويحاسبه على أعماله في الدنيا ويثيبه عليها أو يعاقبه؛ لأن ذلك ثابت بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، ولا يمكن أن يقبل العقل والفترة السليمة عدم وجوده. والقيامة الكبرى من الأمور التي أخبر عنها جميع الأنبياء أممهم، وقد طالبوا المنكرين بالإيمان بها. وقد حكى القرآن الكريم ذلك في عدة مواضع على لسان أنبيائه؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام وغيرهم. ثم جاء محمد ﷺ وبين وفصل أحداث اليوم الآخر في سنته كما لم تبينه غيره من كتب الأنبياء قبله؛ لأنه بُعث هو والآخرة متقاربتين.

وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة هو جسد الرسول ﷺ؛ فقد قال: "أنا سيد ولد آدم

ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافعٍ وأول مشفعٍ".

⁶³ QS. al-Qamar: 7.

⁶⁴ QS. al-Zumar: 68.

ولقد بين الله ﷺ أحوالهم يوم القيامة في القرآن، منها:

- أنهم يُخرجون ويدعون على أنفسهم بالويل والثبور، كما قال ﷺ: ﴿وُنْفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝﴾⁶⁵.
- أنهم يتمنون أن يكونوا ترابا، كما قال ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾⁶⁶. وأن يروا الذين أضلّوهم ليطؤوهم بأقدامهم، كما قال ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْحِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾⁶⁷. وأن يقدموا أبناءهم وأزواجهم وإخوانهم وعشيرتهم وكل ما في الأرض جميعا؛ من أجل أن ينجوا من شدة العذاب، كما قال ﷺ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۖ وَصَلَاحِيَّتِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ﴾⁶⁸.
- اسودت وتغيرت وجوههم، كما قال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ ۗ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁶⁹.
- حبطت أعمالهم فما يقدموه من أعمال صالحة، كالصدقة والعتق وصلة الأرحام، والإنفاق ونحوها من سبل الخير لا تغني عنهم شيئا. فالله ﷻ شبيها بالسراب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ

⁶⁵ QS. Yasin: 51-52.

⁶⁶ QS. al-Naba': 40.

⁶⁷ QS. Fusilat: 29.

⁶⁸ QS. al-Ma'arj: 11-14.

⁶⁹ QS. Yunus: 27.

بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧٠﴾.

- أنهم بأعمالهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهم في خسارة لا يقام لهم وزن يوم القيامة. كما قال ﷺ: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ١٠٥).⁷¹
- أنهم يعمقون أنفسهم، فتبلغ كراهيتهم لأنفسهم في ذلك اليوم مبلغًا عظيمًا. كما قال ﷺ: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)⁷². ويمقون أنصارهم في الدنيا ويدعون عليهم بمضاعفة العذاب. كما قال ﷺ: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ٦٨).⁷³

د. النتائج والتوصيات

وقد توصلت في هذه الدراسة الموضوعية للسورة إلى نتائج، من أهمها:

1. سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعادا لوقوعه وتكديبا به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم.
2. شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا.

⁷⁰ QS.al-Nur: 39.

⁷¹ al-Kahfi: 103-105.

⁷² QS. Gafir: 10.

⁷³ QS. al-Ahzab: 67-68.

3. ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، غلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم

ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة.

4. التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن

اليمن وعن الشمال غرورا منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

وعُلم أن أشرف العلوم والمعارف وأعلاها قدرا علم كتاب الله، فكل العلوم تدور حوله، وهو

المصدر، غير أن علم التفسير هو أقواها علاقة به؛ إذ به يعرف مقصود رب العالمين. وإن لعلم التفسير

شأن عظيم، كما لا يخفى على عاقل، ولكن أكثر كتب التفاسير تشكو من قلة خدمة المختصين من

طلبة العلم لها. فحري بطلاب العلم من أهل الاختصاص أن يهتموا بها، تحقيقا وتنقيحا، لأنها مصادرنا

في تفسير وفهم كلام الله ﷻ.

المراجع

- Al-Asfahani, Al-Ragib, *Muqaddimah Jami' al-Tafasir*, ed. by Ahmad Hasan Farhat, Alexandria: Dar al-Da'wah, 1984.
- Al-Azhari, Ahmad, *Tahdzib al-Lughah*, Beirut: Dar Ihya al-Turats al-Arabi, 2001.
- Al-'Ais, Zaid Ibn Umar, *al-Tafsir al-Maudhu'i Bayna al-Tasil Wa al-Tamtsil*, Cairo: Dar al-Mawaddah, 2006.
- Al-Bayumi, Muhammad Rajab, *al-Bayan al-Qur'ani*, Cairo: al-Dar al-Misriyah al-Libnaniyah, 2005.
- Al-Kumi, Ahmad, *al-Tafsir al-Maudhu'i*, 1976.
- Al-Qurtubi, Syams al-Din, *al-Jami' Li Ahkam al-Qur'an*, Riyadh: Dar 'Alim al-Kutub, 2003.
- Al-Suyuti, Jalaluddin, *al-Itqan Fi Ulum al-Qur'an*, Damascus: Dar Ibn Katsir, 1986.
- Al-Qur'an Al-Karim
- Al-Zarkasyi, Muhammad, *al-Burhan Fi Ulum al-Qur'an*, ed. by Muhammad Ibrahim, Beirut: Dar al-Ma'rifah, 1371.
- Asyur, Ibn, *al-Tahrir Wa al-Tanwir*, Tunisia: al-Dar al-Tunisiyah, 1984.
- Al-Jauziyah, Ibn al-Qayyim, *Bada'i al-Tafsir*, Dammam: Dar Ibn al-Juzai, 2006.
- Katsir, Ibn, *Tafsir al-Qur'an al-'Adzim*, Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyah, 1998.
- Muslim, Musthafa, *Mabahits Fi al-Tafsir al-Maudhu'i*, Damascus: Dar al-Qalam, 1989.
- Rasywani, Samir, *Manhaj al-Tafsir al-Maudhu'i Li al-Qur'an al-Karim Dirasah Naqdiyah*, Aleppo: Dar al-Multaqa, 2009.
- Sa'id, 'Abd al-Satar, *al-Madkhal Ila al-Tafsir al-Maudhu'i*, Najaf: Matba'ah al-Adab, 1985.